أدب الاسكافى وأسلوبه اللاذع

من حديث شائق وآراء طريفة

للدكتور أحمد فريد رفاعى
مدير المطبوعات الأسبق

وهكذا تتجدد المسألة ، ويتغير مجرى « الأحاديث » ، وهى فى جوهرها تتجه نحو غاية واحدة ومثل واحد، ذلك هو رفع الثقافة، وتجلية المعرفة، وتنمية المدارك بالمعلومات الحديثة .

ولصديقنا الدكتور ولع - وأى ولع - بعلم التاريخ وأدبه وفلسفته؛ ولعل المجموعة النفسية التى تحتويها مكتبته فى هذا الباب ، تكاد تكون منقطعة النظير . . . زرناه فى الأيام الأخيرة فألفيناه يقرأ كتاب «معجم الأدباء» لياقوت الرومى طبعة الأستاذ مرجليوث ، ويقرأ بصفة خاصة فذلكة عن الحسن بن على الاسكافى ؛ فأسمعنا قطعاً من التهكم الرشيق، والأدب اللاذع، ذكرتنا بأساليب كتاب الغرب فى هذا النوع، ثم جر بنا الحديث إلى ما فى اللغة من دقائق جديرة بالإذاعة ، وإلى ما يجب عمله فى سبيل إذاعتها على نحو يستفيد منه القراء فائدة كبيرة ، ويتعرف منها إلى مناحى الأساليب الطلية ، وليقف منها الناطقون بالضاد على ما فى لغة الآباء والأجداد من روعة وطلاوة وحلاوة .

ومن ثم استقر بنا الرأى على ضرورة وضع سلسلة رسالات صغيرة جيبية عن كبار رجالات الأدب ، وأئمة اللغة والبيان ، وطليعة النقاد فى العرب .

ثم انتقلنا إلى شئون شتى فى مختلف العلوم والفنون ، وجمهرة من الآراء العلمية الحديثة ، وحشد من مشاكلنا فى الاقتصاد والمرأة والحياة .

وقد رأينا أن نرجىء هذا الجزء الأخير على أن ننشره فى العدد القادم ، لما فيه من : روعة، وطلاوة، وبعد نظر ، ودقة تصوير ، قاصرين حديثنا الآن على أدب الاسكافى؟ المحرر

***

قلت للدكتور : أريد أن تحصر فكرك معى فى أدب الاسكافى وأسلوبه، وأن تترك تحقيق نسبه الآن ، وأن نرجىء الحديث عن مشاكل الأسرة وحياتنا الاقتصادية إلى فرصة أخرى.

فقال : « أنت يا صديقى ترغمنى على التحدث عن الأدب إرغاماً ، وأنت تعلم مشغوليتى ومهمتى فى إدارة قسم المحاضرات ؛ ولست أعلم السر فى قطع حديثنا عن مشاكلنا فى الأسرة والاقتصاد ؛ سوى أنك أديب بالطبيعة ، وبعبارة أصرح ، أديب بالرغم منك ، تفضل الأدب على كل شىء آخر ، وأعتمد فى رأيى هذا على قول (لمبروزو)

وأنت به جد خبير؛ فلقد كتب عن العبقرية كتاباً يعتبر المرجع ـ حتى الساعة ـ فى هذا الموضوع الخطير ، كما كتب كتاباً فى الإجرامية هو الحجة فى فلسفة الإجرام : فثم المجرم بالطبيعة ، والمجرم بالعادة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم بالبيئة ... الخ .

فعلى هذا النمط يجوز لنا أن نقول : هناك أديب بالطبيعة ، وأديب بالعادة ، وأديب بالقراءة ... وهلم جرا .

فقلنا للدكتور : نرجو أن تعود بنا إلى الاسكافى ، أو إلى قطعة من قطعه .

فقال : قد لا يهم قراءك أنه الحسن بن على ، وأنه ينتهى إلى عبد الملك بن ناهوج ، ولكن قد يهم قراءك أن يعلموا أنه كاتب بالوراثة ، ومن بيت كتابة وأدب وإشراف على الرسائل الديوانية ؛ وما علينا من الفضول فى التحليل والشرح والنقل وما إلى ذلك ، ولنقتطف لك الآن قطعة ... ولعلك تذكر ما كان بين (جيتة) و (شلر) ، أو لعلك تذكر رسالة الجاحظ عن التحاسد بين الكتاب والأدباء ... فاقرأ إذاً رسالته الخالدة إلى القاضى الفاضل عند قدومه من مصر إلى الحجاز ، يسأله فيها شيئاً من رسائله اختتمها بقوله :

« فصار مثل هذه العوارف التى أقتصر فى ذكرها على الايماء ، وقوفاً مع محتد سيدنا ـ أطال الله بقاءه مبسوط اليد فى عباد الله بالفرض ، مقرضاً له عناء همه فيهم أحسن القرض ، منجزاً لهم ما وعد ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ـ عند الخادم ؛ ومثله كالبيت من القريض قبل القافية ، والمريض الذى مطلته الأيام بالعافية ؛ فلا يكمل ذلك ولا يروق ، ولا يتطرب به المشوق ، ولا يترنم به الكئيب ، ولا يتسلى به الغريب ؛ دون تمامه ، وتكافى أجزاء نظامه ، وعبقه بسلك ختامه ، ولا يحس هذا بلذة على الحقيقة وإن شرفت ، حتى يجد روحه روح الشفاء ، فيدرك مزيتها بطرق الصحة ، ومروءتها بحاسة سمعها ، وتساعفه الأقدار بتكميلها لك وجمعها .

وما أسفى إلا عليها فاتنى ... بقرطاسها لا بالدنانير أكلف
فجد لى بما أهواه منها فاتنى ... سأحلف فى استيهابها وأكلف
وما هذه الأهواء إلا غرائز ... قبيح لدى نقادها المتكلف

وإن كان الخادم عن حال من شرف بهذا من أغنى الناس ، ولم يكمل بعدته الاستئناس ، فليس له أن يكون معترضاً ، ولا أن يتلقى ذلك بغير التسليم والرضى ، فإن الخدمة السامية هى التى يبين لديها الأقدار ، وبأفعالها تترتب المنازل وتتفاوت الأخطار ، وكنت عند كونى بمرو ، عرض على شيخنا فخر الدين أبو المظفر عبد الرحيم بن تاج الاسلام أبى سعد السمعانى ـ تغمدها الله برحمته ـ جزءاً يشتمل على رسائل للحسن القطان إلى الرشيد الوطواط ، محشوة بالسب له والثلب ، تصريحاً لا تعريضاً ، ويلزمه الحجة فى أنه نهب كتبه ، وسلبه نتيجة

عمره ، ويستحسب الله عليه ، وضاق نطاق الزمان من تحصيلها وكتبها ، وقلت :

وكم منية خلفت خلفي وبغية ... ومن حاج نفس حال من دونها الترك
إذا ذكرتها النفس منت وأزعجت ... وودت لفرط الوجد أدوكها الفتك
سلام على تلك الديار وقدست ... نفوس عنوانها ثرى العلم والنسك

وبقيت نفسي إليها متطلعة ، وإلى مكنونها ملتفتة ، فظفرت برسائل الرشيد محمد بن محمد ابن عبد الجليل العمري البلخي المعروف بالوطواط ، متضمنة لأجوبة يدل آخرها على إضراب القطان عن تهمته ، والاذعان بإراءة ساحته » .

بل اقرأ قوله :

« إن شر ما في بني آدم من الخصال الذميمة ، والأفعال الاثيمة ، إيذاء الصغار الكبار ، وإيحاش العبيد الأحرار ، وهذا له ـ أدام الله فضله ـ جبلة فطر عليها ، وطبيعة استرسل معها ، وسجية شهر بين العامة والخاصة بها ، يشتم كل يوم في منزله ومكانه ، وعلى سدة داره وطرف دكانه : خلقاً كثيراً ، وجمّاً غفيراً ، من الرافعين قصصاً إليه ، والعارضين علالهم عليه ، فيرجعون وجفونهم تتصوب عبراتها ، وقلوبهم تتصعد زفراتها ، لما يلاقون من سوء خلقه ، ويقاسون من خشونة فطقه ، ويقفلون وألم ذلك التهجم والاعراض ، والوقيعة في الأحساب والأعراض ، أشد عليهم من ألم الأسقام والأمراض ، ولهذا جعل شخصه ، وصيّر نفسه ـ مع أنه أفضل زمانه ، وأعلم أولاد أقرانه ـ ضحكة الأداني والأقاصي ، وسخرة للأذناب والنواصي : حتى صار بحيث إذا مشى في الأسواق ، تعادى صبيان البلد حوله ، فيسخرون منه ، ويضحكون عليه ، وينعرون في قفاه ، ولا أقول فيه ـ أدام الله علوه ـ إلا ما قال الخليل بن أحمد الفراهيدي في ابن المقفع ، حين رأى كمال فضله ، ونقصان عقله :

« علم وافر ، وعقل قاصر » ، ومن قصور عقل ابن المقفع أنه مر ببيت النار ـ وكان من أولاد كسرى ـ فتنفس الصعداء ، وتمثل ببيت الأحوص بن محمد الأنصاري :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل ... حذر العدى وبه الفؤاد موكل

فاتهم بالمجوسية ، فألقي في تنور مسجور فأحرق ، وما أصدق من قال : « قيراط عقل ، خير من قنطار فضل ، ومثقال حلم ، أنفع من مكيال علم » . أنكر ـ أدام الله علوه ـ رشاد مذهبي ، وإنكاره ضلال ، وجحد سداد سيرتي ، وجحوده باطل محال ، فيا طير الله جمجمة فرخت فيها الأضاليل وباضت ، ويا أسكت الله شقشقة دفقت منها الأباطيل وفاضت ، ولا أعني بهذه الجمجمة إلا جمجمته التي لا عقل فيها ، ولا أريد بهذه الشقشقة إلا شقشقته التي يباينها الصدق ويناقضها ، حتى متى يتهمني بفتنه ؟ وإلى كم يجرعني دردي دنه ؟ أيحسب ـ أدام الله علوه ـ

أن ظنه الباطل وخياله الفاسد ووهمه الكاذب، وحي من السماء إلي، أو إلهام في الحقيقة ربانى، أو أنه نفث بها روح القدس في روعه، لا بل هو واحد من أبناء زماننا. وهذا شر الأزمنة عجم الشيطان عوده فاستلانه، فصير خزانة خياله مكانه، فهذه الخطرات التي تختلج في جنانه، وتدور حول حسبانه، من تلك الخيالات الشيطانية، لا من الإلهامات الربانية.

ولقد بلغني من أفواه الرواة، وألسنة الثقات، أنه - أدام الله علوه - أخذ بعين هذه التهمة الكاذبة - قبل هذا - واحداً من أعيان جلدته، وسكان بلدته، وهو مسعود بن المنتخب - رحمه الله - فأغار على أهله وبيته، وتعرض لحيه وميته، وخرب دوره ورباعه، وغصب أثاثه ومتاعه، من غير حجة تصحها، ولا بينة أوضحها، اللهم اصرع الظالم على الطاعة، وخذ منه للمظلوم حتى يرضى عنه يوم القيامة.

ومما أقضي منه العجب، أن عهدي به - أدام الله عزه - قد كان يخرب الأبدان، فها هو الآن يخرب الأوطان، وما أسرع الدهر إلى تغيير البشر، وما أقدره على تبديل الصور والسير، قرأت في بعض الكتب: أن خليفة من الخلفاء رأى في منامه أن واحداً من ندمائه وثب عليه ليقتله، فلما أصبح استدعى النديم وأمر بقتله، فقال له النديم: ماذا فعلت حتى استوجبت هذه العقوبة؟ قال الخليفة: ما فعلت شيئاً، ولكني رأيت في المنام أنك تقتلني، فقال له النديم: إن يوسف بن يعقوب - صلوات الله عليهما - مع كونه صديقاً نبياً احتاجت رؤياه إلى تعبير، وافتقرت أحاديثه إلى تأويل وتفسير، أفتستغني رؤياك عن مثل ذلك؟ فضحك الخليفة وخلاه، وأنا أقول: هكذا ظنون جميع ذوي الألباب، معرضة للخطأ والصواب، كأنه - أدام الله علوه - تفرد من بينهم بذاته، وتوحد بعظمة صفاته، فتنزهت ظنونه عن السهو، وتقدست أحاديثه عن اللغو، عصمنا الله من الكبر البائن، والعجب الشائن، أما حان أن ينتبه - أدام الله علوه - من غفلته، ويستيقظ من رقدته، وقد بلغ غاية شيبه، وأخذ المرت بلحيته وجيبه، يقرع كل ساعة مناذي الفناء، في أذنه الصماء، أن اترك أوطانك، واهجر أهلك وجيرانك، وارحل إلى جهنم بخيلك ورجلك، فإنها قد أوقدت نيرانها لأجلك، وما حرص جهنم على شيء كحرصها على إحراق شيخ غوي، وهم عي، سيء الخليقة، مذموم الطريقة، يتظاهر بالاثم والعدوان، ويتبع خطوات الشيطان، هو - أدام الله علوه - بلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع، وهم بحر عمره بالنضوب، ومال نجم بقائه للغروب، فما ظنه: هل في الحياة طمع، وقد بليت جدته، وفنيت مدته، وتراجع أمره، وأتى على الثمانين عمره؟

أيرجو الفتى عوداً إلى طيباته ... وقد جاوزت رأس الثمانين سنُّه؟

كتبت هذه الأحرف على سبيل الأنموذج، والجواب بعد في الجراب، والسيف لم يسل

من القراب ؛ فان انزجر ـ أدام الله علوه ـ واتعظ ، وترك الفظاظة والغلظ ، وعاد إلى كرم العهد وصفاء الود ، فأنا خادم مخلص وعبد مطيع وتليد ممتقد

وإلا فعندى للعدو وقائع تريه المنايا لا ينادى وليدها »

***

والآن يحلو لى أن أنتقل بك ، بعد أن سمعت ـ فى أناة واطمئنان ، وفى استشعار بروعة الأسلوب، وجمال السبك ، وفى مجانة ـ ما تضمنته تلك الملح والغرر والدرر من تهكم لاذع ، ونكتة بريئة ، ونقد مر ، ولكنه محبب إلى النفس ، خفيف الوقع على القلب ، ومن متانة فى رصانة ، مع دقة وصف ، وجمال وقع ، وحسن مدخل ، ومائية أسلوب ، وطلاوة عبارة، وفراهة معنى ، وصفاء غلالة .

الآن يحلو لى أن أنتقل بعقلك الرشيد ، وذهنيتك الفذة ، وثقافتك العالية ، لأطلب إلى خيالك الخلاق ، وإلى ثروتك الأدبية الرائعة ، وإلى مكنتك التحليلية العلمية ؛ أن تقارن تهكم صاحبنا وخفة روحه ، بالأساليب المستحدثة : كأسلوب (جيروم جيروم) ؛ بل لتقارنها بالأسلوب الرائع الفتان الذى استحدثه نابغة الأدب العصرى وزعيم المجددين الدكتور طه حسين... وكذلك يحلو لى أن تقرأ الجاحظ فى نواح متعددة من رسائله،لا فى رسالة «التدوير والتربيع » التى عنيت أنت بها فحسب ، بل فى كتاب « الحيوان » وشتى رسائله ، وذلك ـ بعد ذلك ـ أن تقول ليس بعد الارهاص إلا الاعجاز ، وذلك بعدئذ أن تطلب إلى وزارة المعارف ألا تحرم الأدب العربى والثروة العربية ـ التى تدرس فى المدارس الآن ـ من أمثال : الصيرفى، والاسكافى ، والطبرى ، والمسعودى ، والجاحظ ، وابن المقفع ، والعماد الأصفهانى ، وغيرهم من حملة البيان ، فى لغة البيان ، ولغة القرآن .

ولى أمنية فى مكنتك أن تضطلع بها ، لما عهدناه منك من عزم وجلد،وما خبرناه فيك من دأب فى القراءة، ودراية فى أفانين العلم والأدب ، ولما أضحى لمجلتك من قيمة علمية فى متعدد الأوساط العلمية ، وأرقى الهيئات الاجتماعية ، حيث أضحت فى الطليعة ، وأصبح قراؤك كثيرين فى مختلف البلدان الشرقية ... أطلب إليك ـ فى قوة وحزم ـ أن تدافع عن ختام هذا الحديث ، وتعمل قدماً فى سبيل نشر القراءة النافعة ، وبعث الثقافة الصحيحة ، والله وحده يتولى جزاءك ، إذا لم يكن فى مصر من يقدر مثل هذه الأعمال الجليلة ، وهذا النوع من الصحافة العلمية الراقية ، والبحوث العالية الرفيعة ...

« المعرفة » ليس المعرفة أن نعلق على حديث العالم الفاضل الاستاذ الدكتور فريد رفاعى ، بأكثر من أنها ترجو له بتيح لها القدر ، تحقيق هذه الامنيات الرفيعة ، والرغبات السامية ، التى حملها عاتقها الاستاذ الدكتور .